بسم الله الرحمن الرحيم

التراث في فكر قدري طوقان– رؤية جديدة.

أ.د أحمد حسن حامد*

رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني

يشتمل هذا البحث على العناصر الآتية:

1-نبذة من حياة قدري طوقان.

2-مفهوم التراث من وجهة نظر قدري طوقان.

3-العقلانية عند قدري طوقان ودورها في تأصيل التراث العربي والإسلامي.

4-مستقبل التراث في ضوء المستجدات الحضارية المعاصرة.

يُنسب قدري طوقان إلى عائلة عربية في فلسطين هي عائلة (طوقان) وهي عائلة مشهورة في المجال العلمي، فقد أنتجت هذه العائلة فدوى طوقان الشاعرة الفلسطينية المعروفة وهي الشاعرة التي جسدت القضية الفلسطينية من خلال الكلمة الفنية، وذاعت شهرتها على المستويين العربي والعالمي، ومن قبلها كان أخوها إبراهيم طوقان، ذلك الشاعر الذي

أسـهم فـي تأصـيل الشـعر الفلسـطيني المعاصـر بكـل أبعـاده الاجتماعيـة والسياسـية والأدبيـة، بحيـث يعـد بحـق رائـداً مـن رواد النهضـة الشـعرية المعاصرة في فلسطين.

أما قدري طوقان فقد نحا نحواً مغايراً لما نحا إليه أبناء عمومته، إذ اتخذ من العلم والأدب منهجاً جمع فيه ما بين الأصالة والمعاصرة، فعاش ما يقارب ثلاثة أرباع قرن أسهم فيها – وبشكل واضح – في إحياء التراث العربـي والإسـلامي، وتدرجت حياتـه مـا بين معلّم قدير، وسياسـي بـارع، و مجمعي نشيط فعصر جُلَّ حياته على خدمة أمَّته العربية ووطنه فلسطين، وترك طائفة من المؤلفات النافعة في مجال العلم والأدب.

أما التراث فلا أريد أن أبحث عن المفهوم اللغوي لهذا المصطلح ؛إذ أصبح معروفاً لدى الباحثين والمؤرخين أنه يعني كل ما ورثَته الأمة بصورة إرادية أو غير إرادية، أما الثانية فلا تستطيع التحكم بها إذ تشمل كما يرى طوقان عبارات توارثناها دون أن نملك القدرة على التخلص منها، إذ قد نطمئن إليها رغم أنفِنا وهذا ما لا نريد الولوج إليه لأنه يتعلق بالنفسية الإنسانية أو إن شئت فقل الموروث الذي أصبح متأصلاً في نفوسنا نركن إلى الجيد منه، ويصعب علينا التخلص من الرديء أو غير المناسب منه، فالتراث من وجهة قدري طوقان يقسم إلى قسمين: عربي خالص، وعربي إسلامي مختلط، والقسم الأول متجذر أصيل ممتد عبر التاريخ، وهو أطول عمراً من القسم الثاني الذي تلاقى مع مجيء الإسلام، وعليه فيجب التفرقة

ما بين التراث العربي والتراث العربي الإسلامي، فقد يكون الأول مختلطاً بإرث قبائل وشعوب غير إسلامية، وأما الثاني فهو عربي إسلامي وأكثر الدراسات كانت تنصب على الاتجاه الثاني وليس الأول كأنها تظن أن تاريخنا وتراثنا ابتدأ منذ ظهور الإسلام وهذا كما أقول نظرية خاطئة فلا بدّ من أن نعطي التراث العربي استحقاقه من البحث والدراسة لنرى ما الذي حذفه الإسلام وحاربه، وما الذي أبقاه وهذبه مهما كان نوع هذا التراث سواء أكان على مستوى العادات، والتقاليد، أم على مستوى الحياة المعيشية، أم على مستوى استعمال الأساليب اللغوية وقد أشار القرآن الكريم كثيراً إلى ذلك الموروث، ونزل من الآيات ما هو شفاء ورحمة للناس وللمؤمنين، وجاء كثير من الآيات ليعالج ما ورثه العرب لا ليصلحوا أنفسهم وحسب بل ليكونوا روَّاداً لغيرهم من الأمم {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } (110) سورة آل عمران . والقارئ لسورة (النور) أو غيرها يلحظ بلا شك كيف وجه الإسلام المسلمين نحو اتباع السبل الصحيحة في معالجة التعامل مع النفس ومع الآخر وهناك من الموروث ما لا يضر بالعقيدة الإسلامية فأبقاه الإسلام دون تغيير من ذلك ما نقرأ : {**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم** إن **تستغفر لهم** سبعين مرة فلن يغفر الله **لهم** } (التوبة 80).

هل لو استغفر الرسول – صلى الله عليه وسلم – إحدى وسبعين مرة سيغفر لهم؟ الجواب: لا.

فهـذا مـن قبيـل المبالغـة ألا تسـمع هـذا المـوروث إلـى الآن فـي بيئتنـا الاجتماعية فتقول لمن لا تريد أن تبيعه سلعة ما: والله لو تدفع فيها مليون ليرة، أو دينار .. فلن أبيعك إياها، ومثل هذا نستطيع أن نجمع كثيراً مما ورثناه وندونه، ونعرِّف الأجيال به ليكون قاعدة تراثية متواصلة.

ليس التراث في رأي قدري طوقان مجرد نظرة عابرة بل هو ذاكرة الأمـة، ومخـزون مـا أنتجَتْـه عبـر العصـور، التـراث قاعـدة تنطلـق منهـا الحضارة والأصالة فمن لا تراث له لا أصل له وبالتالي فلا حضارة له، وإن كانت فهي مزيفة تزول بزوال أسبابها، وأبعد من ذلك فإن أعداء الأمة ممن سرقوا الأرض حاولوا بل يحاولون أن يسرقوا تراثها ومهما فعلوا فإن ذلك سيزول لا محالة ،تغلبت الرومان في التاريخ على اليونان كما نعرف جميعاً غير أن حضارة اليونان بكل مقوماتها بقيت حتى الآن، ذلك أن لليونان أصالة تراثية مرموقة عرفها العالم آنذاك فقدرها وأفاد منها.

يرى طوقان أن كل ما هو أصيل لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسرق إذ إن الأيام والدراسات سوف تكشفه إنْ آجلاً أو عاجلاً قائلين إن قدري طوقان فهم التراث على أنه الدافع الأساس لنهضة الأمة وتقدمها، وإشعاع حضارتها في داخلها أو فيما حولها وهذا ما دفعه إلى أن يتابع تأثير الحضارة الإسلامية في البلاد الأوروبية، إذ يتبين في كثير من دراساته أثر العلوم الذي كان له لدور البارز في النهضة الأوروبية الحديثة، ويُكثر طوقان من الحديث عن مفكري العرب والمسلمين ويبرز دورهم في

الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء واللغة وغيرها وقد خصص كتاباً منفرداً تحدث فيه عن كل هذه الجوانب التراثية المميزة بعقلية العالم الأديب، والأديب العالم ومن ثم كانت لغته تتأرجح ما بين العلمية اللغوية، واللغوية العلمية.

وأما ما يتعلق بالعقلانية فأُشير إلى أن قدري طوقان ألف كتاباً متفرداً بيَّن فيه قيمة العقل عند العرب، ودوره في خدمة الأمة والإنسانية، ونفض عنه الغبار الذي تَمثَّل في وصْمِه بالعاطفية، إذ بيَّنَ أن العقل العربي استطاع أن يخترع ما كان الإنسان بحاجة إليه على العصور وذلك في مجالات الطب، والهندسة، والكيمياء، والجبر، واللغة، فهناك كثير من النظريات العلمية التي اخترعها العرب لخدمة الإنسانية، غير أن قدري طوقان لم يغفل عن دور العاطفة هي الأخرى في مساعدة العقل إذ إنَّ الإنسان عاطفة وعقل وهذا له ديدنه وتلك لها ديدنها.

ثم بيَّن طوقان أن الأمة العربية بتاريخها الطويل لم تنجب أشخاصاً وإن أنجبت ظواهر، فالخليل ظاهرة، والكندي ظاهرة، والغزالي ظاهرة والظواهر أَثْبَتُ في التَّأْصيل والاستمرار في الحياة من الأشخاص إذ قد تفقد الشخص غير أن الظاهرة ليس من السهل فقدانها تأثر قدري طوقان في مفهوم العقل عند علماء العرب والمسلمين كثيراً فنحا نحوهم في التخصص العلمي فهو معلم بارز في مجال الرياضيات والكيمياء واللغة كذلك،فكأنَّه يطبق لنا مفهوم العقل من خلال تخصصه ودراساته.

وأمّا مستقبل التراث في ضوء المستجدات الحضاريَّة المعاصرة، فلا شك في أن العلم في تطور، والحياة في تطور شئنا أم أبينا وهذه قاعدة آمنَ بها قدري طوقان، فأين نحن من هذا التطور؟ هذا التساؤل يجيب عنه قدري طوقان من خلال تمحيص التراث العربي والإسلامي، وتطوير نظريات هذا التراث تلاقياً مع الخطوط الحضارية المعاصرة، وكأنَّه يتنبأ بأن هناك ثورةً علميةً قادمة،ولا بد من أن نسرع في غربلة تراثنا بغية استخدام ما يمكن أن يتعامل مع هذا التطور العلمي الجاري، لم يعرف طوقان شاملة المعلومات، ولكني على ثقة من أنه كان يدرك أن حديثا ما سوف يأتي في المستقبل ،وعليه فإن قدري طوقان يُعَدُّ رائداً من رواد إحياء التراث العربي والإسلامي ووضعه في الصورة التي تنتظر التعامل مع التقنيات الحديثة.

*** نبذة:**

الأستاذ الدكتور أحمد حسن حامد/رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني.

1- تخرج في جامعة الإسكندرية فحصل على درجة الدكتوراة سنة (1987).

2- درَّس في جامعة وهران الجزائرية أربع سنوات.

3- عضو مراسل في المجمع السوري.

4- آثر الرجوع إلى فلسطين رافضاً التعاقد مع جامعة خارجها.

5- أنشأ مع قلة ممن يحملون شهادة الدكتوراة جامعة النجاح الوطنية في نابلس.

6- ألقى عدة محاضرات في الجامعات الفلسطينية في غزّة والضفة.

7- عمل عميداً لكلية الآداب من سنة (1986–1992).

8- عمل رئيساً لقسم الدراسات العليا للعلوم الإنسانية (2004–2006).

9- أشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراة في مصر وفلسطين.

10- ابتدع المنهج (التحليلي النحوي الإحصائي الدلالي) ووجه طلبة الدراسات العليا في النحو والصرف إليه.

11- شارك في كثير من المؤثرات اللغوية والأدبية في داخل فلسطين وخارجها.

12- أبعدته السلطات الإسرائيلية عن فلسطين مع عدد من أساتذة الجامعات سنة 1982 وعاد بعدها بسنتين بـ (لمّ الشمل).

13- لـه عـدد كبيـر مـن الأبحـاث فـي اللغـة، والنحـو، والأعـلام، والتحقيق.

منها: 1- تحقيق كتاب أسرار النحو لابن كمال باشا.

2- تحقيق كتاب الافتتاح في شرح المصباح لابن علاء الدين الأسود.

3- التضمين في العربية (بحث في النحو والبلاغة).

4- السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة.

5- دراسات في أسرار اللغة.

6- النحو والصرف بين السؤال والجواب.

7- الواضح في علم الصرف.

8- قضية الأصل والفرع وأثرها في بناء النحو العربي.

9- قضية الخفة والثقل وأثرها في النحو العربي.

10- الشيخ سعيد الكرمي باحثا وشاعراً.

11- القدس في يوميات خليل السكاكيني.

12- لغة السيادة في شعر محمد مهدي الجواهري.

14- خيري حماد رائد الترجمة في العصر الحديث.

15- معجم ألفاظ الانتفاضة (بالاشتراك).

16- دور الإعلام في التنمية اللغوية في فلسطين.

17- مسار الخطأ في الإعراب لدى الطّلاب.

18- فصاحة الكلمة من الوجهة الصوتية.

19- مجمع اللغة العربية الفلسطيني. نشأته وإنجازاته.

20- لغة المقال في أدب قدري طوقان.

21- نظرية الربط في النحو العربي.

22- الوجه الثقافي لمدينة نابلس الفلسطينية.

23- إسحاق موسى الحسيني كما عرفته

وغيرها.